تقديم مذكرات المجاهد الكبير
يحيى بن أحمد زبارة

رئيس التحرير

بمناسبة مرور ٥٩ عاماً هجرياً و ٥٧ عاماً ميلادياً على الثورة الدستورية يسعد «مجلة المسار» أن تزين عددها بنشر هذه الوثيقة الهامة التي تنير جانباً من الجوانب المطوية من تاريخ «الثورة الدستورية».

ترجع أهمية هذه الوثيقة إلى أن الذي أملاها لم يكن معاصراً لها فقط، ولا شاهداً عليها فحسب، بل كان أحد صناعها وناسج وقائعها، ومن روادها الأوائل، وأحد رجالها البارزين الذين ثبتوا على موقفهم بعد فشلها ولم يبدلوا تبديلاً. ومن هنا تكتسي هذه الوثيقة أهميتها البالغة كمرجع مهم في تاريخ «الثورة الدستورية».

هذه الوثيقة هي مذكرات أو جزء من مذكرات المغفور له «يحيى بن أحمد زبارة» التي لم يتمكن من إكمالها، ولا أسعفه المرض بالتوسع فيها، لكنه على كل حال أعطى ـ ضمن ما تحدث عنه ـ خطوطاً عامة عن نشاط المعارضة في القاهرة، كافية لأن توضح دوره ودور رفاقه فيها منذ اليقظة الأولى.

قصة هذه المذكرات أن شيخنا الجليل وصل إلى «واشنطن» يوم الأحد ١١ جمادى الأولى ١٤١٩/ ١٠ ديسمبر عام ١٩٨٩ (للعلاج وإجراء عملية

جراحية لعينيَّ حيث أنهما قد ابيضتا من الحزن والألم والبعد عن الوطن والأهل)[١]. وكان يحمل على كتفيه أحداث ٧٧ عاماً هجرياً أو ٧٤ عاماً ميلادياً، وكانت عيناه قد ابيضتا من الحزن والشيخوخة والمرض ولم يبق منه المرض مساحة سليمة إلا ذاكرة قوية تحتفظ بمخزونها بجلاء وبصيرة كأنما كانت تجري بالأمس. ومع ذلك فقد كانت تعروه لحظات نسيان ما يلبث أن يستعيدها عندما يسمع صوته فيصحح ما أخطأ فيه، أو زلت لسانه باسم خطأ.

لم يمكنه مرض عينيه من أن يقرأ أو يكتب ـ وهو الشغوف بهما ـ فاقتُرِحَ عليه أن يزجي أوقات فراغه بإملاء مذكراته في مسجلة وعلى ديسكات، فوافق على ذلك مسروراً، وبدأ يملي هذه المذكرات الشيقة والهامة، كلما آنس في نفسه النشاط والحيوية، وبما أنه كان يحمل على كتفيه أعباء ٧٧ عاماً هجرياً فقد كان يحس بالتعب أحياناً فيستريح قليلاً أو يمضي يوم أو يومان قبل أن يعود فيستأنف حديثه الواضح النقي.

هكذا وبعفوية وبدون تخطيط أملى جزءاً من مذكراته في تسع حلقات تضمنتها خمسة أشرطة، ولحرصه على التدقيق كان يعيد ما سجله **(بعد أن انتهيت من الأشرطة عدت لسماعها، أي لسماع الأشرطة، فوجدت أني سهواً لم أكمل بعض الأشرطة)** إلخ[٢]، وبهذه العناية كان إذا وجد خطأ صححه قبل أن يواصل الحديث الجديد، وبقي على هذا المنوال حتى أوان عودته إلى «القاهرة»، على أمل أن يوالي إكمال المذكرات ويتوسع في تفاصيل ما فرغ منه عندما يستقر فيها، معتبراً أن ما سجله في هذه الأشرطة ليس إلا **(مقدمةً لما سأقوله عن تكوين حركتنا في القاهرة وعن تكوين الحركة في عدن ويقوم بها الأخوان هناك، وكذلك في صنعاء)**[٣]. وفي ختام

---

(١) من المذكرات ص٨١.
(٢) من المذكرات ١٣٩.
(٣) من المذكرات ١٦٩.

التسجيلات قال: (**وعند عودتي إلى «القاهرة» سوف أكمل ما بدأته من حديث عن وطننا «اليمن السعيد» وعن جهادنا وعن قيام جماعتنا بـ«القاهرة»، ثم أتكلم بعد أن أوفي الموضوع حقه أتكلم عن أسباب فشل ثورة ٤٨**)[1].

لكن الشيخوخة والأمراض والأسقام تعاورته، فظل يكافحها ويصارعها ولم تدع له وقتاً للعودة إلى المذكرات حتى انتقل إلى رحاب الله، فانقطعت المذكرات بما سجله في «فرجينيا» عند نهاية «الثورة الدستورية».

قام بتفريغ المذكرات صديقنا الأستاذ الكاتب المعروف «منير العكش» صاحب مجلة «جسور» المتميزة، فله الشكر الجزيل على ما قدم من تعب الإصغاء، ومعاناة فهم بعض الكلمات اليمنية، ولا يقابل شكر ذلك العمل المضني إلا القول بأنه قد أسهم بتعبه ومعاناته في خدمة التاريخ اليمني، فإذا كان «زبارة» قد أملى بلسانه هذه المذكرات فـ«منير» قد أفرغها بقلمه كما نطق بها صاحبها بالأمس كلمةً كلمة وحرفاً حرفا.

إذا كانت هذه المذكرات غير كاملة فإن فيها جديداً لم ينشر، وإضاءات لم تسبق، وخطورتها تكمن في جديدها، وجديدها يكشف النقاب عن سر بقي مكتوماً لا يعرف الناس شيئاً عنه سوى الظنون والتجاذب بالتهم، وكان الناس فيها يختلفون، وحولها يدوكون، فجاء المرحوم «يحيى زبارة» ـ وكم لآل زبارة من أيد تأريخية ـ فكشف سر نشر «الميثاق المقدس» وقائمة «موظفي الدولة الدستورية» في مجلة «الإخوان المسلمون» بأمانة وبساطة كأنه لم يكشف لغزاً، ولم يذع من الأمر خطيراً، مع أن ما نشره قد وضع نهايةً للجاج سياسي طويل عريض وتنابز بالتهم جزافاً بين كثير من الأطراف. ذلك أن نشر الميثاق وأسماء رجال الدولة الدستورية قد أدى إلى كشفها قبل شهر من قيامها، ومن ثم إلى الإسراع في تفجير الثورة قبل

---

(١) من المذكرات ص١٦٩.

الأوان، ففشلها ـ ضمن أسباب أخرى ـ لهذا السبب، وفي ظل الخوف من تحمل مسؤولية ذلك طفق من نجا من المذبحة يُحمِّل الآخر تلك المسؤولية، وأنا على يقين أنه بما كشفه سوف يقطع لجاج المتخاصمين ويبرئ ساحة المتهمين.

إلى جانب ذلك قدم هذا الجزء من المذكرات صورة مشرقة وأمينة لجهاد وجهود رجال «الثورة الدستورية» في «القاهرة» وقد بقيت تلك الصور المتألقة مطوية غائبة عن التداول حتى جاء راحلنا الكبير فسجل لمعاً منها أضاءت كثيراً مما كان مخفياً. ولا أبعد عن الصواب إذا قلت إن هذه المذكرات تشكل دور الرائد الأول في هذه المنطقة التي لم يقتحمها أحد غيره حتى الآن، وكل من تحدث عنها فمن مكان بعيد، وإلا فبنثار متفرق.

إلى ـ جانب ذلك ـ ترينا عجائب ومفاجآت ضاحكات باكيات، وصوراً أخلاقية فذة، وأخرى متدنية لأشخاص كانت تحيط بهم هالات الإكبار، كما ترينا كم تدهورت أخلاقيات الزمن الديمقراطي من أيام الملك «فاروق» إلى اليوم، ففي ذلك العهد ـ الذي طالما صببنا عليه غضبنا ـ كان يمكن لزعيم من المعارضة وبمجرد تلفون واحد أن يمنع تسليم «يحيى بن أحمد زبارة» إلى الإمام ليقطع رأسه أو يقذفه في غيابات السجن، وكان الإمام يلح في تسليمه بتهمة اشتراكه في قتل والده. وكان الملك فاروق قد استجاب لهذا الطلب.

* * *

لا أعتقد أنني في هذا التقديم بحاجة إلى ترجمة حياته كلها، وهو قد تكفل بها إلى نهاية الثورة الدستورية، أما بعدها فمرحلة لا تكفي فيها صفحات مختصرة قد لا تمكن من كشف الحقائق كما هي، وقد تظلم آخرين من خصومه، نتيجة الاختصار وعدم التوثيق، ولكن أعد بأن أعمل ذلك عندما تنشر المذكرات في كتاب مستقل. وسيكون لي معه موعد فأتحدث عنه وأوفيه حق جهاده، وأدفع ما بهت به من نكران تضحياته، لكن

لا بد من الإشارة إلى معلم في سجيته يختص بالتعامل مع الأصدقاء والخصوم، وهي سجية تكشف لنا نبل المحتد وسمو الذات. لقد أصابه حيف من نبال الصديق وسهام العدو فلم يبادلهما سهماً بسهم ولا نَبْلاً بنَبْل، ولكن قابلهما بنُبل عز له المثيل، ويمكن اختزال صفاته المتعددة ـ في هذه العجالة ـ بالقول بأنه يملك طبيعة الفارس النبيل الذي احتفظ بفروسيته ونبله في كل الأوقات حتى سقط مضرجاً بصموده النقي.

كان «يحيى بن أحمد زبارة» إذن فارساً، سلاحه الكلمة والموعظة الحسنة، لم يعرف عنه مدح ولا قدح، ولا تنابزٌ بالألقاب. كانت الكلمة الصادقة سبيله فلا يحاور بغيرها، ولا يجادل بسواها. كان فارساً، وكفارس مناضل كان نبيلاً. نبيلاً حتى في خصومته. عندما هاجمه بعض رفاق دربه بعد أن هيجهم الطموح السياسي بأقذع الكلمات والصفات ونشروا عنه ما لم يفعل، ورووا عنه ما لم يقل، وقذفوه بوابل من الاتهامات، لم يرد عليهم بكلمة نابية أو جارحة. تنزهت كلماته عن الرد البذيء بصمت الواثق من نفسه، ووقار المسيطر على إرادته؛ فلم تفلت منه في خصومه كلمة شوهاء، أو رد فعل عنيف، بل تصامم عنها، ولم يرد عليها، كأنه لم يسمعها، وكأنه غير معني بها. وهذه طبيعة الفرسان النبلاء الواثقين من أنفسهم ونهجهم، ومنهجهم. وعندما تكلم في هذه المذكرات روى صادقاً ما حدث وأعطى كل ذي حق حقه مع أنه كان في وسعه أن يلمز من اختصم معهم بعد هذه الفترة، لكنه لم يفعل لأنه فارس نبيل.

وكطبيعة الفارس لم يمنّ بأعماله المجيدة ولا بنضاله الدؤوب، ولم يستكثر تعداد فضائله السمحة، بل روى مذكراته بشجاعة الفارس وصدقه ونبله، فلم يتفاخر ولم يتبجل، ولم ينسب إلى نفسه وحدها الجهود، ولم يختزل نضال الآخرين في شخصه، بل قال عن نفسه **(ما كنت في حياتي عند الدعوة إلا ظلاً هادئاً أؤدي واجبي في صمتٍ وفي خشوعٍ وفي قداسةٍ)**[1] مع

(١) من المذكرات ص٨٣.

أنه في حقيقة الأمر لم يكن ظلاً لأحد، وإنما كان ركناً قائماً بذاته وأساساً متيناً شامخاً يلقي بظلاله الندية على من حوله. وهذه طبيعة الفارس المجاهد. وفيما كتبه شاهد على ما نذهب إليه.

أكون مطمئنًّا عندما أدعو إلى اتباع مثل هذا المنوال في كتابة المذكرات وغيرها، وأتمنى أن ينهج أصحاب المذكرات هذا المنهج العلمي الوقور، فلا يختزلون أعمال الآخرين في أشخاصهم؛ ولا يصبحون هم محور الفترة ولولبها، وأن يدعوا هذا الإدعاء للمؤرخين ليضعوهم في أماكنهم، لا أن يتولوا هم تزكية أنفسهم فذلك ضرب من جنون العظمة، ومن الخبل النفسي. أما ما عليهم القيام به فهو أداء الشهادة الصادقة، وعلى المؤرخين المنصفين أن يقوِّموا أعمالهم. لقد ابتلي هذا الجيل بوجه خاص بهذا النوع من الكتابة، وبغمط جهد الآخر وإخفاء دوره، إما رغبة أو رهبة أو حسداً أو خوفاً من المزاحمة على الإدعاءات. وقد يبدو هذا محتملاً في ساعات الاضطهاد والقهر والنكران، ومن ثم يجد المرء المُضطهد نفسه مدعوًّا إلى تزيين أعماله وتمجيدها. لكن إذا كانت الساحة خالية من وباء القهر فإن الحديث عن تمجيد الذات يبدو نوعاً من الإدعاء أو الغرور، وقد عاش صاحبنا الظرفين معاً لكنه سلم منهما معاً، فبالرغم من تلوث الأجواء بالاضطهاد والقهر والحرمان لم يعمد إلى مثل ما يعمد إليه المقهور أو المغرور، بل احتفظ بتواضعه النبيل.

* * *

ما عملته في هذه المذكرات أنني أضربت عن الحواشي وترجمات من جاء اسمه في هذه المذكرات إلى أن تصدر في «كتاب المسار» إلا ما كان ضروريًّا. كما لم أتدخل في النص إلا بالتوضيح في الحواشي، أو إضافة إدخال التاريخ الهجري إلى التاريخ الميلادي، وإذا أردت توضيح المعنى وضعته بين معقوفين هكذا [ ].

وقد خطر لي أن أزيل ما جاء فيه من ثناء نبيل على أبي وأمي وأخوتي تحاشياً لقول مغرض وشان، لكني رأيت أن المغرض والشاني سيبقى هو هو مريضاً بأحقاده، يغضبه المدح ويرضيه القدح، ولست معنيًّا بغضبه أو رضاه، وإنما أنا مهتم بصحة ودقة هذه المذكرات، ومنصرف إلى رعاية الأمانة التي بين يدي لا أزيد فيها ولا أنقص، إيماناً مني راسخاً بأن أي تغيير في أي نصٍ هو عدوان إجرامي على النص. وأنا لا أستجيز لنفسي ولا لغيري أن يغير فيه حرفاً واحداً، أو يزيد أو ينقص، أو يبدل أو يشطب سواء أرضي به أم غضب عليه. وإذا عنَّ له ما يرغب في قوله فأمامه الحواشي يعلق فيها بما شاء على ما شاء، ولكن ليس من حقه قط أن يتدخل في نصٍ سواء أكان راضياً عنه، أم غاضباً عليه.

كما قد يذهب بعض المغرضين والشانئين إلى أن وراء نشرها هو ما جاء فيها من مدح وتكريم. وأقول صادقاً أنني مع امتناني لما أثنى صاحب المذكرات، واحترامي لما أبدى، واعتزازي بصداقة مثله، لم يكن هذا هو السبب في نشرها، ولو خلت من مثل ذلك لكنت قد نشرتها قبل فترة من الآن. والحق أقوله أن ما فيها من عاطر الثناء وخاص المودة وعابق الإخاء هو أحد الأسباب في تأخير نشرها حتى اليوم.

هذه هي إذن مذكرات شاهدٍ أمين على وقائع فترة زمنية من تاريخنا المعاصر، جرت أحداثها في مكان محدد، وأن هذه الوقائع لبثت مطوية حيناً من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً، حتى جاء هذا المجاهد الصلب الفارس فكشف عنها النقاب، ورفع الحجاب، وها نحن بكل تقدير نقدمها في هذا العدد الممتاز.

فتحية له في حياته، وسلاماً له في موته، وخلوداً له في ذكراه.